PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2023) 60(2): 740-758
ISSN: 1553-6939

The openness of the historical approach to the levels of Quranic knowledge _Any addition_ ?

Billel Boussena[1]

[1]University of Haj Lakhdar Batna -1- (Algeria), billel.boussena19@gmail.com

Received: 06/2023, Published: 06/2023

Abstract:

The study presents another unusual proposal, according to our estimation, on the issue of the historical method and the issue of its development in the human fields. The development of the latter depends on the development of the researcher's cognitive level, and since the Holy Qur'an is a comprehensive divine book, it deals with human cognitive levels, starting with the sensory level, then the mental level, up to the heart level, the latter being absent in human studies due to Western biases that recognize the sensory level and deny everything that is unseen. Or my God, and this is what made us think, as much as possible, to return the research methodology in general, the historical method in particular, to the Holy Qur'an, and to think about developing it to a level that makes it more effective than it was.

Keywords: curriculum; the date; openness; The Quran; Knowledge.

انفتاح المنهج التاريخي على مستويات المعرفة القرآنية _ أيّةُ إضافة؟_

د. بلال بوسنة[1]

[1]جامعة الحاج لخضر باتنة -1- (الجزائر)، billel.boussena19@gmail.com

ملخص:

إنّ الدراسة تقدم طرحا آخر غير معتاد حسب تقديرنا حول مسألة المنهج التاريخي وقضية تطوره في الحقول الإنسانية، إذ لا حظنا في العديد من الدراسات حصر الوسيلة المنهجية في خطوات علمية قانونية منعزلة عن الباحث، وهذه الدراسة هدفت إلى تبيان العلاقة المتلازمة بين الباحث والمنهج التاريخي، وأن تطور هذا الأخير مرهون بتطور المستوى المعرفي لدى الباحث، وبما أن القرآن الكريم كتاب إلهي شامل فإنه تناول مستويات الإنسان المعرفية بدءً بالمستوى الحسي ثم العقلي وصولا إلى المستوى القلبي، هذا الأخير غُيّب في الدراسات الإنسانية بسبب التحيزات الغربية التي تقر بالمستوى الحسي وتنفي كل ما هو غيب أو إلهي، وهذا ما جعلنا نفكر قدر المستطاع إلى إرجاع المناهج البحثية بصفة عامة المنهج التاريخي بصفة خاصة إلى القرآن الكريم والتفكير في تطويرها إلى مستوى يجعلها أكثر فعالية مما كانت عليه.

الكلمات المفتاحية: المنهج؛ التاريخ؛ الانفتاح؛ القرآن؛ المعرفة.

مقدمة

إنّ عملية التباحث في المناهج ضرورة ملحة للمشتغلين على تحسين جودة الأبحاث العلمية، خصوصا إذا تعلق الأمر بالمنهج التاريخي الذي يُعد أكثر المناهج البحثية حضورا في الساحة الإنسانية، والذي لا يكاد ينفك أي بحث علمي عنه، وعليه جاءت هذه الورقة البحثية محاولة لإبراز أهمية المنهج التاريخي وساعية إلى إيجاد الطرق التي تخدمه وتنقله إلى التطور المنشود، ولذلك انصب اختيارنا على هذا العنوان الموسوم بـ: علاقة المنهج التاريخي بمستويات المعرفة من منظور القرآني، حيث أردنا من خلاله أن نعالج إشكالية بارزة مفادها: **إلى أي مدى يمكن أن يتطور المنهج التاريخي في ظل انفتاحه على مستويات المعرفة في القرآن الكريم؟** ولعل الإشكالية جرتنا إلى طرح عدة تساؤلات فرعية: ماهي المستويات المعرفة التي طرحها القرآن الكريم؟ ما هو تعريف المنهج التاريخي؟ وماهي تركيبته؟ كيف تساهم مستويات المعرفة من منظور قرآني في تطوير المنهج التاريخي؟ وإرتأينا من خلال الإشكالية والأسئلة الفرعية أن تمر الورقة البحثية عبر ثلاث محاور رئيسة:

المحور الأول: مستويات المعرفة من منظور قرآني.

المحور الثاني: الجانب التصوري والإجرائي للمنهج التاريخي.

المحور الثالث: علاقة المنهج التاريخي بمستويات المعرفة من منظور قرآني.

هذا وكله عزم على إبراز شمولية الرؤية القرآنية لكامل الأمور الحياتية المتعلقة بالإنسان بما في ذلك البحث التاريخي ومناهج البحث فيه، كذلك تهدف الدراسة إلى ضرورة العناية بالمنهج التاريخي كونه أمتن المناهج البحثية راغبة في تحسينه، لأن تحسينه يؤول إلى تحسين البحث التاريخي وتحسين البحث التاريخي يخدم الإنسان ويحسن حركته في الوجود.

المحور الأول: مستويات المعرفة من منظور قرآني.

إنّ منبت المعارف والعلوم من منظور توحيدي يرتكز على القرآن الكريم كأساس ومحور ينطلق منه، لما لهذا الأخير من خاصية بارزة في شموليته، وفي كرمه وعطائه. في هذا المحور أردنا أن نوضح مستويات المعرفة التي طرحها القرآن الكريم بدءً بتعريف القرآن الكريم؛ ثم تبيان مستويات المعرفة فيع قدر المستطاع.

1_ التعريف بالقرآن الكريم:

تعددت وتنوعت التعاريف التي خصت القرآن الكريم من شخص إلى أخر، في هذه الورقة البحثية ركزنا على أبرز تعريف نظر إلى القرآن من زاويته المعرفية، يقول أحد الباحثين: "القرآن هو

المعادل للوجود الكوني وحركته وما فيها من متغيرات مكانية وزمانية تنعكس كلها على المجتمعات والأبنية الحضارية وتحمل الدفع المستقبلي دوما"[1]، أي؛ أن القران الكريم يساوي الوجود في سيرورته الزمكانية، وهو مولد كل المعرفة الكونية، نلحظ من التعريف أن صاحبه أراد أن يعادل تعريف القرآن بالوجود المتحرك في الزمان والمكان، يقول: "صاغ الله هذا الكتاب الكوني بحيث يعطي أشكالا مختلفة من الوعي والمعرفة تبعا للفوارق النوعية في تطور العقل البشري وأنساقه المعرفية، فلا يصبح مستلبا بشكل مطلق لمرحلة تطورية دون الأخرى وليؤدي رسالته العالمية وعبر متغيرات المكان والزمان وموافق لكل منهج يظل مستمرا في أسلمة المعرفة عبر كل العصور وليس عصر معين"[2].

انطلاقا من التعريف المذكور، نسهم بمحاولة أخرى لتعريف القرآن نقول: أنّه كلام إلهي موجه إلى الإنسان يبصره بحركة وجوده من بداية خلقه في العوالم المختلفة إلى نهايته، ولا يختص بعالم الزمان والمكان فقط كما ذكر في التعريف السابق؛ لأنه لو كان فعلا كذلك لأصبح كتاب دُنيا، أو بعبارة أوضح كتاب تاريخ يعرض التجربة الإنسانية الخاصة بعالم الزمان والمكان فقط، لكن القرآن أوسع من ذلك بكثير؛ يشمل عالم الزمان والمكان والعوالم الخارجة عن المادة.

2_ مستويات المّعرفة من منظور قرآني:

إنّ من جملة التعاريف اللفظية العامة للمعرفة هو أن: " المعرفة في كل حالاتها هي علاقة تقوم بين الإنسان الذي يعرف والشيء المعروف"[3]، وهناك من عرفها قائلا أنها: "فعل الذات العارفة في إدراك الموضوع وتعريفه بحيث لا يبقى فيه أي غموض و التباس"[4]، وقال آخر: " إنها ثمرة التقابل والاتصال بين الذات المدركة والموضوع المدرك، وتتميز من باقي الشعور من حيث أنها تقوم في آن واحد على التقابل والإتحاد الوثيق بين هذين الطرفين"[5]، مما سبق ذكره نخلص إلى أن: المعرفة تعني مطلق الإدراك في الوجود، "وهي أكبر من العلم، والعلم محتوى في المعرفة وبينهما نسبة العموم والخصوص المطلق"[6]، إذا قلنا أن المعرفة تساوي مطلق الإدراك في الوجود، والوجود مبثوث في القران الكريم، فإن التدرج في الوجود يعرف مستويات وأدوات تراتبية بيّنها القران الكريم في أكثر من مرة.

لقد أسهم الفكر الإسلامي في بناء الحضارة الإنسانية بعد نزول القران الكريم، حيث دعا القرآن الكريم أمة الإسلام لطلب العلم والمعرفة منذ اللحظة الأولى في قوله تعالى: "إقرأ باسم ربك الذي خلق"[7]، فهذا أول خطاب إلهي وجه إلى النّبي صل الله عليه وسلم، وفيه دعوة إلى القراءة والمعرفة، وكل إنسان يولد في الدنيا خاليا من كل المعرفة، ثم يكتسب بعد ذلك جميع علومه ومعارفه عن طريق أدوات خاصة جهزه الله بها[8]، يقول الله تعالى: " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون"[9]، وقال في موضع آخر: " ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير"[10]، نلحظ من الآية الأولى أن طلب القراءة هو للناس أجمعين، على اختلاف حظهم من العقل والقدرة على التفكير، فالإنسان يكتسب معارفه بعد اتصاله بالخارج عبر أدوات المعرفة التي أشارت إليها الآية الأولى والمتمثلة في " الحس، والعقل، والقلب" ولو

فرضنا انعدام تلك الأدوات لما حصلت للإنسان أية معرفة، وهذا ما أكدته الآية الثانية عندما ركزت على ذمٍ للمتبوعين الذين يجادلون في الله من غير وعي، وبيان لطرق المعرفة، حيث تذكر أن هؤلاء لم يسلكوا طريق العقل ولا طريق العرفان، كما لم يستعينوا بالوحي الذي هو الكتاب المنير وتفصيل ذينك الآيتين يُسلمنا إلى وجود عدة مستويات للمعرفة، والتي أُريد من خلال طرحها في القرآن أن تُوظف مركبة يكمل بعضها البعض كأداة لمعرفة الوجود أي؛ (الحس+ العقل+ القلب+ الوحي)= أداة واحدة للتفسير وجلب المعرفة، وأن تجزيئ البعض من تلك المركبات يؤثر سلبا في عملية تحصيل المعرفة المقاربة للحقيقة، كما أنه يصنع اتجاهات وأسقف مغلقة تدافع عن أداتها المعرفية من غير إطلاع على الأدوات الأخرى، وهذا ما حدث في الواقع، من ذلك الانفكاك ظهر الحسيون والعقليون، والإشراقيون، كإفرازات على الساحة التاريخية، وأصبح أغلبهم يحتكرون المعرفة في مستواهم فقط، وهذا ما نسعى إلي توضيحه في هذا العنصر؛ هو كيفية عمل تلك المستويات المعرفية التي طرحها القرآن الكريم والتي هي متاحة في تركيبة الإنسان؛ أي يمكنه أن يُحصلها بنفسه انطلاقا من تركيبته الخلقية لأنه توجد طرق أخرى للمعرفة خارجة عن الإنسان العادي كالمعرفة الوحيانية مثلا الخاصة بالأنبياء والرسل، أما عن المستويات الاخرى فقط طرحت على النحو التالي:

أ_ **المعرفة الحسية:** وهو طريق مفتوح لجميع البشرية بما في ذلك الحيوان، هذا الطريق يعد أول طرق المعرفة، ميدانه الطبيعة الحسية، وأدواته حواس الإنسان من سمع وبصر وشم ولمس...إلخ، هذا الطريق هو مرحلة أولية تفضي إلى مراحل بنائية لاحقة، إذن؛ هو بداية الطريق، لا كل الطريق.

نجد أن القران الكريم خص هذا الاتجاه بمواضع كثيرة نذكر من بينها قوله تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت"[11]، وعلى أية حال فإن هذه الآية الجليلة لم تخاطب أهل هذه المرحلة في شأن السماء إلا من حيث رفعها كما يرفع السقف على البيت، وتلك هي أبسط نواحيها وأشدها بدائية[12]. هذا الطريق بالنسبة للحيوان محدود عكس الإنسان الذي يمتلك وسائل أخرى تتجاوز طريق الحس تساعده في التكامل أكثر، لكن هل استوعب الإنسان على مرّ عصوره أن أداة الحس طريق ممر لا طريق نهاية أم لا؟

كما أنّ الاعتماد على هذا الطريق وحده يفضي إلى أن الإنسان في تركيبته مادة فقط، أي لا يحمل مكونات ومركبات أخرى إلا المادة الخارجية التي يتواصل معها بالحواس الظاهرية فقط، لكن في حقيقة الإنسان أنه مركب من المادة ومن غير المادة فكما للمادة وسائلها المعرفية كذلك لغير المادة/ الغيب وسائله المعرفة، ومحاولة تحوير كل ما في الوجود إلى المادة وحدها هو ضرب من الخيال وقصور في فهم معادلة الوجود، وإذا جعل الإنسان الحس مقصده وغايته تجرد من خصيصته الغيبية الإلهية وركن إلى المادة البدنية وحاجياتها التي لا تعدو أن تكون فانية بفناء البدن، وتصبح القيم المادية الزائلة هي الشغل الشاغل وهي المتعلق الوحيد للإنسان، فإذا تعلق بها وانقطع عن باقي المستويات التصاعدية للمعرفة التي تؤول إلى معرفة الله فإنه حتما يساهم في موته التدريجي ريثما انتهت تلك المادة وفنت.

ب_ المعرفة العقلية:

لما كان القرآن يطلب من أتباعه الفهم الواعي لما يلاحظون ويشاهدون ويحسون، ولما كان الإنسان بوسائل معارفه الحسية وحدها لا يستطيع استيفاء جميع مطالبه الفكرية، فكان لا بد له أن يتخطى تلك المعرفة الحسية في اكتساب المعارف ويصعد درجة من درجات السلم المعرفي.

وهنا ينتقل الفكر من مرتبة النظر إلى الكائنات بعين البصر، إلى مرتبة النظر في الموجودات بعين الذهن المعتمد على الحواس، ومن ذلك قوله تعالى: " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب"[13]، فهذه الصورة المرئية التي رسمتها الآيات من وجود السماوات بعضها فوق بعض، وما يتراءى فيها من شموس وكواكب وما يشاهد ويلاحظ من نظامها الدقيق، ووجود الأرض بما عليها من جبال وبحار وصلاحيتها لمقام الإنسان إن كل هذه الصور المرئية فيها دعوة قوية إلى وجوب النظر، ثم إلى التفكير في الموجود المرئي للوصول من ذلك بالعقل إلى المجهول[14].

وبذلك يوجه القرآن نظرنا إلى ضرورة وجوب الملاحظة والتفكير فيما يحسه الإنسان ويشاهده ليصل من ذلك إلى ما لم يكن يعرفه، وهذا الطريق العقلي المعتمد على الحواس يمكن أن يسمى " طريق الأسباب والمسببات"، حيث ينظر المستدل أولا إلى المرئيات ثم يحاول أن يتبين أسبابها المباشرة، أي المؤثرة فيها بلا واسطة، وآيات الأسباب والمسببات في القرآن كثيرة قال تعالى: " وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون"[15]، كما نجد أن القرآن الكريم يؤكد ويصر على وجوب الملاحظة والتفكير، كما يصنف ويجعل من لا ينتفع بحواسه وعقله في صف البهائم أو أضل أو يحكم عليه بأن مأواه جهنم، يقول تعالى: " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون"[16].

ومن هنا فإن البحث في القران اضطر المسلمين اضطرارا إلى استعمال عقولهم، فهو يحث على النظر والتأمل، وعدم أخذ الأمور تقليدا واتباعا للأجداد وللأسلاف، ويسخر من هؤلاء الذين مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا ومن هؤلاء الذين يقولون كما قال الله عنهم: " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"[17] ويعقب على قولهم يقول:" أولو كان آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون"[18]، وعليه فإن القرآن الكريم حث في أكثر من مناسبة إلى استعمال العقل، وأن إهماله وعدم توفير شرائط عمله سيؤول في النهاية إلى تعطيله، وهذا ما هو متفشي في الواقع المعيش، عندما طغت متطلبات الغريزة وأصبحت مشغلا ومطمحا للإنسان في قبال العقل، أدى ذلك إلى تهميشه واقصاءه، لأن العقل الذي لا يُسقى بالقراءة والتفكير يموت كما تموت الشجرة التي لا تسقى بماء الحياة، وعكس ذلك فإن

أصحاب هذا الاتجاه المهتمون بالعقل وحركته هم الأقرب إلى استيعاب افرازات المعرفة القلبية عقليا وتذوقها إذا ساروا إليها عمليا.

ج _ المعرفة القلبية/ الذوقية:

إنّ ميادين المعرفة وموضوعاتها متنوعة تنوعا يزيد على تنوع وسائل المعرفة في الإنسان، كما تتنوع وطبيعة الموضوع المراد التوجه إليه، فإذا كان الموضوع لا يوجد في عالم المادة فإن الحواس تكون قاصرة في نقله، كما يقف العقل مذبذبا في أحكامه كذلك، بل هناك طرق أخرى تتجاوز الحس والعقل، مثل طريق القلب هذا الأخير يعّدُ خصيصة إلهية مودعة في الإنسان به يخرق حجب الغيب شريطة تطهير نفسه والمحافظة على سلامة قلبه. يقول أحد الباحثين في هذا الشأن متحدثا عن سلامة القلب: "ونتيجتهُ دائرةٌ على كشف الغِطاء، وتحقيق الإمداد والعطاء، وهو الذي لا يُنالُ بحيلةٍ"[19]، وهناك من الباحثين من قال عنه أنه: " أداة المعرفة يُعدُّ مركز الإدراك الذّوقي أو الفهم"[20]، والذوق لا يتأتى إلا بالمعرفة الرسمية التي أنجبتها البراهين العقلية بواسطة الذكر، أي لا يكون الذكر مجرد النطق باللسان، بل استحضار القلب لمعاني أسماء الله الحسنى التي اكتسبها في مرحلة المعرفة الرسمية فالذكر يردد بلسانه وفي نفس الوقت يحضر بقلبه اسم الله أو غيره من الأسماء الحسنى إلى أن يكف ومعها اللسان عن الحركة ويستمر ذلك على مستوى القلب ويواظب عليه إلى غاية فناء صورة الكلمة وبقاء معناها مجردا حاضرا فيه وكأنه ملتصق به وحينها لا يمكن الفصل بين الذكر والفكر فيصبح طريق الذكر هو نفسه طريق الفكر، وخلالها يحصل للذاكر فوائد كثيرة منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ومنها ما يتعلق بالكرامات والمعارف التي يتلقاها"[21].

وهذا الطريق الذي يسلكه الإنسان إلى معرفة الله، يعتبر هبة إلهية للإنسان المحقق لشروطه، يقول الله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم"[22]، فالعلم الذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا، والإنسان ليس حسا وعقلا وحسب، بل الإنسان بروحه الشفافة ونفسه الزكية، وبصيرته المضيئة، وإذا ما صفت الروح، وتزكت النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها، وإذا ما تزكت النفس أصبحت محلا للإلهام وللمعرفة المستنيرة في عالم ما وراء الطبيعة، وهذا العلم متاح للأولياء يقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق تعالى، يقول الله تعالى: "وعلمناه من لدنا علما"[23] ويسمى هذا العلم بالعلم اللّدُني أو الإلهام ومفتاحه استغراق القلب بذكر الله[24].

لكن الإشكال الذي حصل على الساحة التاريخية أنه تم التعاطى مع طرق المعرفة منفصلة عن بعضها البعض كما أشرنا سابقا، حيث أصبح كل طريق يمثله إاجاه يُكنى بمسمى ذلك الطريق، فأُطلق على الاتجاه الحسي تسمية الماديون، وعلى الاتجاه العقلي تسمية العقليون، وعلى الاتجاه القلبي بالصوفيين والعرفاء، وأصبح كل اتجاه يُخون الآخر ولا يطمح إلى الوصول إلى أسراره محتكرا المعرفة

لصالحه رغم تفاوتها وهذا ما أخل بالمعرفة برمتها، و التخوين يكون حسب تريب الطرق وأهمياتها، حيث نجد الحسي المنطوي على نفسه يستنكر العقلي والقلبي لأنه لم يستوعبهما ولم يعمل للوصول إليهما، وكذلك العقلاني الذي انطوى على دائرته تجده غالبا ما يستنكر الطريق القلبي لأنه لم يستوعبه ولم يعمل للوصول إليه.

إنّ المعرفة القلبية تُعد درجة راقية في سلم المعرفة، وهي متاحة للإنسان المؤمن الذي يلتزم بشريعة الله وفق ما أراده الله منه، ثم إنها المقصد والغاية التي أرادها الله عزّ وجل أن تتحقق في عباده، ولا يتأتى طريق هذه المعرفة إلا إذا سبقها طريق العقل والحس، فمعرفة التكاليف والقيام بها هي من المهمات الأولية للعقل والحس، اللذان يعتبران طريقا إلى المعرفة القلبية ولا يمكن الفصل بين ثلاثية الحس والعقل والقلب، وأيُّ فصل بينهم يؤول إلى تضارب في اقتناء الحقيقة.

كما تمتاز المعرفة القلبية بسعة الأفق، كونها متجاوزة للزمان والمكان هذا من جهة، ومتجاوزة عن أفهام العقول المنقطعة على الله من جهة ثانية، إنها المعرفة الإلهية المستودعة في قلوب أوليائه بسبب صفائهم وتقواهم، أصحاب هذه المعرفة يكونون أقرب إلى الأنبياء والرسل وأقرب إلى الله من باقي المعرفتين العقلية والحسية.

ويمكننا أن نضع معادلة نوضح فيها هذه المعرفة، بدءً بتفكيكنا لتركيبة الإنسان كأرضية ننطلق منها، لنعرف في النهاية علاقة الإنسان بالمعرفة القلبية من خلال القرآن الكريم وهي على النحو التالي:

الإنسان في بداية خلقته = (نفس+ بدن+ عقل+ قلب+ روح)، الله عزّ وجل خلق الإنسان في فطرة سليمة تحوي على جميع العناصر السابقة مرتبطة بفيضه ونوره عبر واسطة الروح تلك النفخة الإلهية التي تربط بين الإنسان وخالقة عبر القلب الذي يعتبر جوهر النفس، ويعد جهازا لاستقبال الروح الإلهية في الإنسان، بمعنى؛ أن الله في بداية الخلق نفخ الروح في البدن فتكونت النفس البريئة وزودها بوسائط المعرفة، وترك لها حرية الاتصال والانفصال عن الله بسبب الأعمال، قال تعالى: " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"[25]، أي أن الطفل الصغير يولد ملائكيا بالفطرة ثم يمتلك أدوات المعرفة المتوافقة مع عالم المادة ليعرف عظمة خالقه من خلال الكون، وذلك وفق أدوات المعرفة المودعة فيه هذا من جهة، إضافة إلى ارسال الله له الوحي والدّال عن الوحي من جهة ثانية، وكل هذا هدف في تكامله وتحقيقه القرب الإلهي.

وعليه إذا استطاع الإنسان أن يحافظ على سلامة قلبه فإنه يحافظ على اتصاله بالله، وبالتالي فإنه يحافظ على حياته، لأن الاتصال بالله يساوي الحياة والانقطاع عن الله يعادل الموت، وليس كما يروجون للموت أنه موت البدن هذه نظرية مادية تنظر للإنسان على أنه مادة. فموت الإنسان في الحقيقة هو موتٌ لقلبه بسبب معاصيه وإذا مات القلب انقطع اتصاله بالله وإنْ كان يتحرك بالنفس، فكم من أحياء في عالم المادة هم ميتون في الحقيقة بسبب تغليف قلوبهم، وكم من أموات في المقابر

هم أحياء بسبب قلوبهم المتصلة بالله، فعند تجرد البدن وموته لا يعني موت الإنسان وإنما نفسه انتقلت وخرجت من تلك المركبة المادية (البدن)، وإذا كانت تلك النفس سليمة محافظة على سلامة قلبها تبقى متصلة وحيّة في عالمها الخاص، وتبقى تأثيراتها على عالم الدُّنيا لكن كثيرا من الناس لا يشعرون، يقول الله تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"[26]، ويقول في آية أخرى: "ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون"[27] كما نجد أن الله عزّ وجل يركز في أكثر من مرة على سلامة القلب يقول عزّ وجل: " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"[28]، فالتركيز على تطهير القلب والمحافظة على سلامته هو في النهاية يصب في صالح الإنسان؛ لأنه يحافظ على اتصاله بالله الخالق المطلق، وبالتالي فإن الشريعة والأنبياء والمرسلين هم في نهاية نعم إلهية للإنسان تساعده على الارتقاء والتكامل.

استرسالنا في الحديث عن هذه المعرفة راجع إلى أهميتها في حياة الإنسان هذا من جهة، ومن جهة ثانية تهميشها في الواقع المعيش سواء في مناهج التدريس أو الممارسات اليومية، متجاهلين قيمتها ورتبتها وقدرها ومستبعدين حضورها لدى الإنسان، بحيث كلما ابتعد الإنسان عن هذه المعرفة كلما ابتعد عن القيم وعن الدين و بتالي انقطع عن الله وأصبح مثله مثل الحيوان وربما أقل من ذلك، يقول الله تعالى في هذا الشأن: " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون"[29]، وفي قوله: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"[30]، وكلما استثمر الإنسان فيها وأجتهد في تحصيلها كلما أُتيحت له إمكانات خارقة وهبات إلهية بها يعرف الوجود ويفسره، يقول الله تعالى عن مكتسبي هذه المعرفة: " أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"[31]، فالسّعيُ إلى تحصيلها و المجاهدة في امتلاكها ضرورة ملحة، قال تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"[32]، وإذا تولى الله عزّ وجل هداية الطالب لهذه المعرفة إلى الطريق فإنه لا يشقى ولا تبهم الحقائق أمامه في الوجود.

المحور الثاني: الجانب التصوري والإجرائي للمنهج التاريخي.

يعتبر المنهج التاريخي من أهم المناهج البارزة في البحث العلمي، لما له حضور منفتح على جميع المجالات، ونظرا لأهميته حاولنا في هذا المحور أن نبين تعريفه كمنطلق، ثم نفصل في مكوناته بدءا بالشق التصوري فيه، ثم الجانب الإجرائي.

أولا: مفهوم المنهج التاريخي: المنهج[33] التاريخي هو مجموعة المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية[34]، وقد أكد الباحثون على اختلاف مشاربهم ورؤاهم على أهميته باعتباره الوسيلة نحو إدراك الهدف المأمول إنجازه أو نحو بلوغ الحقيقة التاريخية[35].

كما يعدّ المنهج التاريخي من أهم المناهج النقدية التي عرفها العصر الحديث، والتي ارتبطت بالفكر الإنساني، وبمراحل تطوره، إذ يعتمده المؤرخ في جمع الحقائق والمعلومات وتصنيفها وتنظيرها وربطها بموضوع الدراسة التي يريدها[36]، كونه يرمي إلى فهم تلك المواضيع من خلال السياق الاجتماعي والثقافي والفكري الذي يتضمن للمحيط[37]، كذلك يقوم المنهج التاريخي بشرح الأثر وذلك بالعودة إلى التاريخ، وكأنّ الأثر يفصح عن زمان تأليفه وأحوال عصره، لذلك يعتمد النقاد في استخلاص هذه الوقائع من الظواهر، إيمانا منه أنها تحوي مضمون زمانها بكل أبعادها الحضارية والإنسانية، ليقوم بعدها المؤرخ بنقد وفحص المصادر المختلفة، التي تستقي منها الأحداث والحقائق التاريخية، وتصنيف البيانات والمعلومات وتنظيمها بصورة علمية يسهل الرجوع إليها، من أجل استخدام النتائج العامة والتخطيط للمستقبل[38].

بناء على التعريفات السابقة نخلص إلى أن: المنهج التاريخي هو وسيلة تسير وفق خطوات منظمة ترجع إلى الماضي تقرأه لتستفيد منه في الحاضر خدمة للمستقبل، هذه المكونات المركبة لهذه العملية لها جانبين؛ جانب تصوري وجانب إجرائي.

ثانيا: الجانب التصوري للمنهج التاريخي

إذا اتفقنا أنّ المنهج هو وسيلة، فإن لكل وسيلة حركة تبدأ بالفكرة والتي نقصد بها التصور، فأول تركيبة في المنهج هي التصور، إذ لا تتحرك الوسيلة من غير رؤية والتي تتمثل في المنطلقات والخلفيات التي تتعلق بالباحث، وعادة ما يصرح ويكشف عنها في مقدماته، وهي تعد جملة الدوافع والأسباب التي حرّكت الباحث وجعلته يبحث في المشاكل البحثية التي اختارها، أي؛ لماذا اختار الباحث مثلا البحث في هذا الموضوع التاريخي؟ هل ثمة إشكال معرفي ألمه في حاضره أراد من خلاله أن يتوجه إلى الماضي ليفهمه أم أنه اتجه إلى الماضي من غير رؤية؟

إنّ الجانب التصوري في المنهج متعلق بالباحث القائد لوسيلة المنهج، فإذا ما تم رسم الطريق من قبله فما على الوسيلة إلا السّير عبر خطوات إجرائية لاحقة، فالتصور الهادف يجعل من البحث بحثا ثريا يكون أكثر متانة من البحث الذي يفتقد إلى التصور، وعادة تطرح أسئلة التصور على الشكل الآتي: لماذا أريد أن أبحث في هذا الموضوع؟ ما علاقة بحثي في هذا الموضوع بواقعي المعيش؟ هل يفيد بحثي المستقبل؟ من خلال هذه الأسئلة يصنع الباحث تصورا يمكنه من رسم طريق يباشر من خلاله السير الإجرائي للوصول إلى مقصده الذي صنعه.

إنّ تفعيل عنصر الرؤية من قبل الباحثين ضرورة ملحة في البحث التاريخي، فقبل الشروع في الخطوات الإجرائية للمنهج التاريخي يجب على الباحث أن يُكّون رؤية واضحة عن موضوع بحثه، وهذه الرؤية تتأتى من الدراسات السابقة أو من أساتذة لهم واسع النظر في المجال الذي ينتمي إليه الموضوع،

معناه؛ الباحث بعد أن يتزود بأفكار أولية حول موضوعه يجلس مع عنوانه يستنطقه محاولا بذلك فهمه وتكوين علاقة نفسية معه، إذا حدثت تلك العلاقة فإنها تسهل الخطوة المتعلقة بالشق الإجرائي، وتكون النتائج مقاربة كثيرة للحقيقة، لأنه في قبال ذلك يوجد من الباحثين من يشرع مباشرة في الشق الإجرائي للموضوع من غير تكوين تصور أو خلفية فكرية مسبقة عن إشكالية الموضوع فتجده يتيه في منتصف البحث، وربما ينقطع عنه أو يصل إلى نتائج بعيدة عن إشكالية موضوعه، لأنه لم يكون عليها رؤية، ولم يحدد بالضبط ماذا يريد أن يعالج؟.

ثالثا: الشق الإجرائي للمنهج التاريخي: نقصد بالشق الإجرائي محطات وخطوات المنهج التاريخي والتي نعرضها على النحو التالي[39]:

1_ اختيار الموضوع والأشكلة عليه: إنّ عمل المشتغل في حقل التاريخ هو التنقيب فيه وفكّ إشكالاته، ومحاولة قراءته بعيون متجددة هدفها مقاربة الحقائق والاقتراب من الحادثة كما وقعت لا كما مُثل لها، وهنا يجب التمييز بين شقين؛ بين الموضوع التاريخي وطريقة الأشكلة عليه.

أ_ **الموضوع التاريخي:** يمكننا أن نعطي وصفا للموضوع التاريخي بالجنين الذي يتطور بالبحث التاريخي المستمر، كل موضوع تاريخي هو عينة تحتاج إلى حركة بحث في كلّ زمن، فكلما تطورت المعرفة تطورت الدراسة للموضوع التاريخي؛ لأنها متعلقة بتاريخ الظاهرة الإنسانية التي لا يمكننا إخضاعها للحقيقة العلمية المطلقة، كما أن له شروط يرتكز عليها من بينها الاطلاع على الدراسات السابقة أولا حول الموضوع، ثم حصره داخل حدود مكانية وزمانية، وذلك لإخضاعه للبحث بالاستقصاء والتحري، والابتعاد عن المواضيع ذات الطبيعة المفتوحة على كلّ شيء من قبيل مثلا: تأملات في التاريخ العباسي أو التطورات السياسية في الأندلس، فإنّ هكذا مواضيع لا يمكن لملمة أطرافها، فهي عبارة عن مواضيع هلامية لا حدود لها بل يمكن حشوها بكل شيء[40] ، والحصر الزماني والمكاني يفيد باحث التاريخ كثيرا، وتوسيع المجال معناه؛ توسيع المادة المعرفية، وقد يأخذ ذلك من الباحث جهدا ولا يُمكّنه من معاينة الحقائق عن كثب، لذلك من شروط العنوان البحثي في حقل التاريخ الإطار الزماني والمكاني الذي يمثل ضرورة ملحة لكل باحث.

ب_ **طريقة الأشكلة على الموضوع:** تعتبر الإشكالية نقطة محورية في البحث العلمي، بالأساس البحث التاريخي، ضبط الإشكالية بشكل صحيح معناه؛ الانطلاق من التشخيص السليم للموضوع، والجدير بالذكر أن غالبية البحوث التاريخية لا تحوي على إشكالية صريحة للموضوع، عادة ما يطرح أصحابها إشكاليات وليس إشكالية واحدة، والأشكلة المتعددة ستأخذ الموضوع عبر طرق متعددة، والأصل في البحث العلمي طرح إشكالية واحدة وليس إشكاليات، فداخل كل إشكالية متغيرات تلك المتغيرات يعبر عنها بالمشكلات الجزئية التي تبني الموضوع، ومثال على ذلك نسشكل لعنوان بحث موسوم بـ "

إسهامات أعلام المالكية في الحركة الثقافية في بلاد المغرب الاسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن 2_ 5م"، الأشكلة عليه تكون بسؤال جامع لا يعرف جوابا في بداية البحث أو في وسطه وإنما يكون في خاتمته كأن نطرح التساؤل الآتي مثلا: إلى أي مدى ساهم أعلام المالكية في الحركة الثقافية لبلاد المغرب؟ أو بشكل أوضح: هل ساهم أعلام المالكية في الحركة الثقافية لبلاد المغرب؟ فنلحظ أن السؤال لا يمكن الإجابة عليه إلا في خاتمة البحث بعد المرور على الحركة العلمية في بلاد المغرب، ثم أعلام المالكية في بلاد المغرب، ثم المنجز الثقافي للمالكية في بلاد المغرب، وقتها يمكن للباحث أن يصدر حكما وجوابا عن بحثه، فالإشكالية هي جوهر الموضوع ولبّه، وهي النسق المنهجي الذي يربط الموضوع من مقدمته إلى خاتمته.

ونظرا للأهمية الكبيرة للإشكالية، فإنّه يجب على الباحث العناية الشديدة بصياغتها، فمن خلالها يمكن الحكم على مدى قوة البحث وأصالته، وقدرة الباحث على تناوله، كما أنها تحدد كل مجريات البحث وخطته وخطواته، فبالرجوع إلى الإشكالية تضبط الخطة وتتحدد الفصول، فكلما كانت ثرية كلما كانت قوية ذات قيمة علمية، ولذلك فإن قراءتها لوحدها تكفي الحكم على البحث والباحث معا، لأنها تتضمن أهم الأبعاد النظرية والتصورات الفكرية والمجالات البحثية الممكنة، والإجراءات التطبيقية المحتملة..، ومنها نموذج الدراسة[41].

2_ جمع البيانات المتعلقة بالموضوع: البيانات ضرورية لأي باحث في التاريخ، فالذي يريد أن يتناول الأحداث ويقارب حقيقتها يتعاطى مباشرة مع المصادر كمنطلق ثم يتجه إلى المراجع التي تعتبر قراءات لتلك المصادر، لكن ثمة إشكال يكمن في المصادر ذاتها؛ وهو كيف دونت؟ ومن دونها؟ وما موقعها في حراك الحدث التاريخي؟ فيجب على كل باحث أن يلملم كل المصادر التي دونت الحدث سواء المباشرة (الرسمية) أو غير المباشرة التي يستقيها من مصادر قريبة من زمن الحدث.

يعد جمع المصادر خطوة مهمة في البحث التاريخي وهي على أنواع:

أ_ الوثائق: وهي الأكثر استخداما، فلا يمكن أن يقوم التاريخ إلا على أساس من الوثائق، وإذا ما فقدت هذه الوثائق أو الأصول، ضاع التاريخ إذ لا بديل عن الوثائق وحيث لا وثائق فلا تاريخ[42] وتكون بأشكال مختلفة حسب طبيعتها أو مكان تواجدها، يمكن أن تكون مدونات، أو أدلة شهود عيان، وقد تكون إما صحفا أو دوريات، أو دفاتر وقوانين، ويمكن تصنيف هذه الوثائق حسب طريقة إخراجها على النحو التالي: وثائق خط اليد ويقابلها وثائق مطبوعة، وثائق منشورة ويقابلها وثائق غير منشورة أو تحت النشر، وثائق الاستخدام الشخصي[43]، ويمكن تصنيفها إلى صنفين أساسيين وهما:

_ المصادر الأولية: وهي تضم الوثائق والكتب القديمة التي دونها المؤرخون القدماء الذين عاصروا الأحداث التي كتبوا عنها أو كانوا قريبين منها.

_ **المراجع الثانوية:** المراجع الثانوية هي مؤلفات حديثة ألفت لعامة القراء لتكون أنسب ما يرجعون إليه للعلم بالشيء، أو جمع مادتهم وتأليفها، وخلاصة القول في المراجع كما يرى علي جواد الطاهر: أنها ألفت للقراء أولا، أما المصادر فهي للمؤلفين أولا، إن المراجع لعامة طالبي المعرفة، أما المختصون فيذهبون إلى ما هو أبعد منها إلى المصدر- أو المنبع إن شئت[44]، ومهما تبلغ المراجع من القوة والأهمية، فهي تظل ثانوية في عمل الباحث، وثانوية جدا ويرجع إليها للإلمام بأوائل الأشياء، أو للوقوف على وجهة نظر، أو رأي خاص أدلى به المؤلف الحديث، أو الاطلاع على خبر روي في مصدر قديم لم يتيسر للباحث الحصول عليه[45].

ب_ **الآثار:** أي المخلفات ويقصد بها أي شيء مادي يتضمن معلومات عن الماضي كالأدلة مثل الرسومات وبقايا الأبنية، ويعتبر هذا النوع من المصادر الأكثر براءة من المصادر الأدبية.

فالباحث الذي يريد الوصول إلى حقيقة تاريخية ما يجب عليه أن يطلع على المنجز التاريخي ويستقرأ كل ما كتب على تلك الحادثة من زواياها المتعددة، ثم يباشر في عمله.

3_ **ممارسة آلية الفهم والتفسير:** آلية الفهم والتفسير تجعل البحث التاريخي أكثر متانة، إذ على الباحث أن يتحقق بصورة مستمرة في فهمه وتفسيره وتحليله للبيانات بأكثر من وسيلة للتأكد من صحتها، وذلك بصورة موضوعية حتى يتوصل في النهاية إلى تحقيق المعطيات التي يريد دراستها بشكل جيد[46]، وتتضمن عملية التركيب والتفسير التاريخي للوقائع والحوادث التاريخية عدة مراحل[47]:

_عملية تكوين صورة فكرية واضحة لكل حقيقة من الحقائق المحصلة لدى المؤرخ.

_ عملية أو مرحلة تنظيم المعلومات والحقائق الجزئية والمتفرقة والمبعثرة المتحصل عليها وتصنيفها وترتيبها على أساس معايير منطقية مختارة تتجمع ضمن مجموعات.

_ عملية ملء التغييرات التي تظهر بعد عملية التوصيف والتصنيف والترتيب للمعلومات والحقائق التاريخية الجزئية والمتفرقة والمتناثرة في إطار منظم.

_ عملية ربط الحقائق التاريخية بواسطة علاقات حتمية وسببية قائمة بينها أي عملية التعليل التاريخي، فعملية الحتمية التاريخية والسببية هي محاولات الكشف والتفسير عن المجموعات المركبة والمعقدة المتشابكة والمتفاعلة من العوامل الكامنة في كل حدث من الحوادث التاريخية.

وتنتهي عملية التركيب والتفسير التاريخي باستخراج وبناء النظريات والقوانين العلمية الثابتة في الكشف عن الحقائق العلمية التاريخية وتفسيرها وتقريرها، يذكر ابن خلدون في مقدمته أن تفسير البيانات التاريخية يتطلب استخدام منطق التعليل، لأن الظاهرة التاريخية لا تسير بحسب الأهواء

والمصادفات، وإنما تحكمها قوانين ثابتة ومطردة، وأن ما يشير إليه ابن خلدون يعني إيضاح أسباب حدوث الظاهرة التي هي موضوع الدراسة عن طريق الملاحظات والتجارب لتحديد المتغيرات المستقلة والتابعة والعلاقات الوظيفية بينهما[48].

4_ مرحلة الوصول إلى النتائج: فيها يحدد الباحث الغاية من بحثه والمتمثلة في الحقيقة العلمية التي يتوصل إليها الباحث انطلاقا من تحديده للنتائج الجزئية وصولا إلى عملية التنسيق فيما بين هذه النتائج الجزئية في إطار كل متكامل[49].

وبهذا يكون المنهج التاريخي المركب من الرؤية والخطوات الإجرائية قد اتضح كأداة بحث تحتاج إلى من يحركها، وهذا ما نصبوا إليه في المحور الثالث الذي نريد من خلاله أن ننظر في كيفية تطور المنهج التاريخي عندما ينفتح على مستويات المعرفة من منظور قرآني.

المحور الثالث: علاقة المنهج التاريخي بمستويات المعرفة من منظور قرآني.

إنّ للوسيلة المنهجية التاريخية علاقة وطيدة بالباحث، فكثيرا ما تُظلم الوسيلة بسبب الباحث، وكثيرا ما ينتقد المنهج التاريخي على أنه عاجز في الولوج إلى القضايا الإنسانية المركبة، وحجتهم في ذلك أنه لا يغدوا أن يكون مرهونا بجملة من العمليات التي لا تنفك عن السببية العلمية التجريبية، وهذا أكبر خطأ يمارس ضد المنهج التاريخي.

إنّ الحديث عن سير المنهج التاريخي هو حديث عن الباحث الذي يُسير تلك الوسيلة، فكلما كان مستوى الباحث المعرفي متجاوزا كلما كانت وسيلته كذلك، وكلما اكتفى الباحث بمستوى معرفي معين اكتفت الوسيلة المنهجية بالسّير داخل ذلك المستوى لا غير، فعلاقة المنهج بالباحث علاقة تراتبية، لا يمكن للمنهج أن يتحرك من غير باحث، كما لا يمكن للباحث أن يسير من غير منهج.

وعليه فالمعرفية القرآنية تركز كثيرا على الإنسان المتجاوز للمادة المتطلع للغيب، وتحثه كثيرا على تحصيل المعرفة القلبية التي تتيح له إمكانات معرفية متجاوزة عن الحسية والعقلية، وهذا ما نركز عليه في هذا العنصر هو توضيح كيفية تطور المنهج التاريخي في ظل انفتاحه على مستويات المعرفة هذا من جهة، ومن جهة ثانية معرفة من هو الباحث المؤهل لاستعمال المنهج التاريخي استعمالا حقيقيا يفضي في النهاية إلى الوصول إلى نتائج خاصة بالظاهرة الإنسانية تكون واضحة ويقينية.

وكما قلما في المحور الأول أن المعرفية القرآنية تطرح للإنسان العادي ثلاث إمكانات معرفية ينتقل فيها بالتدريج عبر شروط معينة تبدأ بالمعرفة الحسية ثم أعلاها العقلية ثم أعلاها القلبية، وانطلاقا من تلك التقسيمات الثلاثية ينقسم الباحثون في التاريخ الذين يوظفون المنهج التاريخي، هناك من مستواه المعرفي لا يغدوا أن يكون حسيا وهناك من يتجاوزه إلى العقلي، وهناك من يكتسب المستوى القلبي،

هذا المستوى الأخير قليلا ما يوظف في الدراسات التاريخية وهذا الذي نريد أن نشير إليه في هذا العنصر كإضافة على ما طرح في الأبحاث التي خصت المنهج التاريخي.

إنّ تركيبة المنهج التاريخي بدءًا بالرؤية التصورية وصولا إلى الخطوات الإجرائية لها علاقة وطيدة بمستويات المعرفة الثلاث معا، والتي تطرحها المعرفية القرآنية في أكثر من مناسبة، ولعنا اتجهنا إلى القرآن الكريم وإلى الطرح الإلهي كونه هو معيار التحكيم وهو أساس الوجود، هو الشامل، الكلي، المطلق، الذي يجب على الدراسات التي تتناول الظاهرة الإنسانية أن تتجه إليه كونه ينظر للإنسان نظرة حقيقية متجاوزة مادية وغيبية، وعليه فإن الباحث الذي يستطيع أن يحصل المعارف الثلاث يفلح في توظيفها في البحث التاريخي في مراحله المتنوعة وسنفصل في الإضافة المعرفية التي تقدمها المعرفية القرآنية فيما يخص مستويات المعرفة وعلاقتها بتركيبة المنهج التاريخي على مستوى الرؤية وعلى مستوى الخطوات الإجرائية.

1_ على مستوى الرؤية:

إنّ حضور المستويات المعرفية الثلاث؛ الحسي والعقلي والقلبي لدى الباحث ضرورة مهمة في تكوين رؤية واضحة المعالم على الموضوع المراد دراسته، رؤية بعيدة عن التحيزات الذاتية، رؤية بعيدة عن الدوافع المظللة والأفكار التهجينية التي من شأنها أن تؤثر على البحث الذي بدوره يؤثر على المجتمع وحركته، لأن الباحث صاحب الرؤية قد حقق شروط أهلته بأن يتعلم من عند الله المطلق، وإذا تحققت له ذلك فإن الحادثة التاريخية ستكون واضحة بالنسبة لله بسبب العلم الإلهي المتاح عنده يقول الله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم"[50]، فالعلم الذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا، والإنسان ليس حسا وعقلا وحسب، بل الإنسان بروحه الشفافة ونفسه الزكية، وبصيرته المضيئة، وإذا ما صفت الروح، وتزكت النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها، وإذا ما تزكت النفس أصبحت محلا للإلهام وللمعرفة المستنيرة في عالم ما وراء الطبيعة، وهذا العلم متاح للأولياء يقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق تعالى، يقول الله تعالى: "وعلمناه من لدنا علما"[51] ويسمى هذا العلم بالعلم اللّدُني أو الإلهام ومفتاحه استغراق القلب بذكر الله[52].

إذًا فالمعرفة القلبية إضافة تكاملية على طبيعة دوافع الباحثين ورؤاهم وهي طريق إلى إنتاج رؤى بحثية هادفة تخدم المنهج التاريخي وتنقله إلى التكامل.

2_على مستوى الخطوات الإجرائية:

إنّ خطوات المنهج التاريخي لها علاقة بمستويات المعرفة الثلاث التي طرحها القرآن الكريم بالنسبة للإنسان، فالطريق الحسي والعقلي يكون حاضرا بقوة في الخطوة الأولى والخطوة الثانية من خطوات المنهج التاريخي، المتمثلة في اختيار العنوان وجمع البيانات المتعلقة به، فذينك الخطوتين يتعلقان بكثرة بالجانب الحسي والجانب العقلي، الذين مهمتها بسط الحادثة التاريخية وطرحها، ثم يأتي المستوى الثالث والرابع المتمثل في الفهم والتحليل وإبداء النتائج، هذا المستوى متعلق بوسائل الفهم والتعقل،

هناك من يفهم بحسه وهناك من يفهم باستدلالات عقله وهناك من يوظف قلبه، هذا الأخير هو الذي يعطي فهما صادقا يقينيا وهذا هو العنصر الذي ينقص الأبحاث التاريخية، لأنه يكسب الباحث قوة معرفية تجعله يحلل الحادثة التاريخية بنور الله، يقول تعالى: "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس"[53]، قدم أحد المفسرون تفسيرا في غاية الأهمية بمكان بخصوص هذه الآية عندما قال: فالإنسان قبل أن يمسه الهدى الإلهي كالميت المحروم من نكهة الحياة الذي لا حس له ولا حركة فإن آمن بربه إيمانا يرتضيه، كان كمن أحياه الله بعد موته، وجعل له نورا يدور معه حيث دار يبصر في شعاعه خيره من شره، ونفعه من ضره، فيأخذ ما ينفعه ويدع ما يضره وهكذا يسير في مسير الحياة"[54] فإذا اكتسب الإنسان هذه المعرفة التي تحييه فإن حياته تكون طيّبة، " محفوظة بالملائكة مصونة لا يمسها نصب ولا لغوب، لا يرى إلا خيرا، ولا يواجه إلا السّعادة، وهو في أمن وسلام، لا خوف معه ولا خطر، ومن هذا الشأن فإنه يرى مالا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعونه، ويعقل ما لا يعقلونه، ويريد ما لا يريدونه وإن كانت ظواهر أعماله وصور حركاته تحاكي أعمال غيره[551]، وهذا من شأنه أن يقدم إضافة راقية للمنهج التاريخي وللبحث التاريخي بصفة عامه، ننفرد فيه بخصوصيتنا التوحيدية عن باقي الخصوصيات المادية المنغلقة على نفسها والتي لا تقدم تفسيرات حقيقة عن ظاهرة الإنسان.

إنّ البحث التاريخي بصفة عامة، المنهج التاريخي بصفة خاصة، إذا فعّل الرؤية التوحيدية فيه، فإنه سيعرف قفزات تكاملية بسبب تفعيل تلك الرؤى الإلهية التي هدفها الأول والأخير هو إيصال الإنسان إلى التكامل المنشود الذي يبصره حقيقته وحقيقة الوجود، وهذا هو هدف الأبحاث التاريخية التي تستعين بالوسائل المنهجية للوصول إلى تلك الغاية الأساسية داخل المنظومة المعرفية التوحيدية.

خاتمة:

مما سبق ذكره نقول أن تطور المنهج التاريخي مرهون بتطور مستويات المعرفة لدى الباحث المحرك للمنهج التاريخي، فالوسيلة المنهجية تتحرك وفق مستوى الباحث؛ إذا كان المستوى المعرفي منطوي على الحس فإن الوسيلة المنهجية لا تسير إلا في طريق الحس، أما إذا كان المستوى المعرفي للباحث يفوق الحس يصل إلى العقل والقلب فإن الوسيلة المنهجية تتطور وفق استحضار تلك الطرق، وهذا ما ترمي إليه المعرفية القرآنية التي تركز كثيرا على الإنسان الموظف للأدوات المعرفية الثلاث في الميادين البحثية خصوصا في الأبحاث التاريخية، هذا وخلصت الدراسة إلى عدة نتائج أبرزها:

_ القرآن يطرح مستويات معرفية متجاوزة تبدأ بالحس لتمر إلى العقل ثم تنتهي عند القلب.

_ تفعيل المستويات الثلاث معا معناه حضور التمكين المعرفي.

_ المنهج التاريخي وسيلة تتكون من شق تصوري يتمثل في الرؤية وشق إجرائي يتمثل في الخطوات العملية للمنهج التاريخي.

1

_ تطور المنهج التاريخي مرهون بالمستوى المعرفي للباحث، هذا الأخير إذا عرف أدواته المعرفية التي أتاحها الله فيه من خلال القرآن الكريم وفعلها فإنه سيوظف المنهج التاريخي توظيفا كليا يستعمل فيه الجانب الحسي والعقلي والقلبي وبالتالي يقارب الحقيقة التاريخية أكثر.

توصيات الورقة البحثية: ف

ي نهاية الورقة البحثية وصلت إلى ابداء جملة توصيات إلى الباحثين والمتمثلة في:

_ تكميل البحث بشق تطبيقي يخص حضور المنهج التاريخي في بعض الحوادث التاريخية.

_ ضرورة العناية بالمناهج البحثية عموما المنهج التاريخي خصوصا والذي من شأنه أن يطور البحث العلمي ويجعله أكثر متانة وتنظيم.

_ ربط الأبحاث التاريخية بالقرآن الكريم لأن هذا الأخير يعد معطة إلهي شامل لكل شيء.

الحواشي:

[1] أبو القاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية للقرآن الكريم، ص93.

[2] بلقاسم حاج حمد، المرجع السابق، ص93.

[3] زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، مؤسسة الهنداوي، ط1، 2018، ص10.

[4] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديث للطباعة والتوزيع، ط1، 2007، ص606.

[5] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، دط، القاهرة، 1982، ص186.

[6] راجح عبد الحميد الكروي، نظريو المعرفة بين القران والفلسفة، مكتبة المؤيد، عمان، ط1، 1992، ص49.

[7] سورة العلق، الآية: 01.

[8] أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء، القاهرة، ط1، ص55.

[9] سورة النحل، الآية: 78.

[10] سورة الحج، الآية: 08.

[11] سورة الغاشية، الآية: 17_ 20.

[12] محمد غلاب، المعرفة عند مفكري الإسلام، دط، د.د، القاهرة، 1966، ص72.

[13] سورة ق، الآية: 6_7.

[14] ينظر: أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء، القاهرة، ط1، 2000، ص61.

[15] سورة النحل، الآية: 10_ 11.

[16] سورة الأعراف، الآية: 179.

[17] سورة الزخرف، الآية: 22.

[18] سورة المائدة، الآية: 104.

[19] أبي العباس أحمد زروف الفاسي، مقدمة التصوف وحقيقته، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ط1، دس، ص16.

[20] أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، مرجع سابق، ص 63.

[21] الطاهر بونابي، الظاهرة الصوفية العرفانية بالمغرب الأوسط، النشر الجامعي الجديد، تلمسان_ الجزائر، ط1، 2020، ص119.

[22] سورة البقرة، الآية: 282.

[23] سورة الكهف، الآية: 65.

[24]عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، دار المعارف، ط1، 1980، ص111.

[25] سورة الشمس، الآية: 09.

[26] سورة آل عمران، الآية: 169.

[27] سورة البقرة، الآية: 154.

[28] سورة الشعراء، الآية: 89.

[29] سورة الأعراف، الآية: 179.

[30] سورة الحج، الآية: 46.

[31] سورة البقرة، الآية: 6_7.

[32] سورة العنكبوت، الآية: 69.

[33] المنهج عموما هو برنامج ينظم مسبقا سلسلة عمليات ينبغي إكمالها ويدل على بعض الأخطاء الواجب تجنبها بغية بلوغ نتيجة معينة. ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة أحمد خليل، بيروت باريس: منشورات عويدات،2001، ص803.

[34] قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990، ص48.

[35]أكرم ضياء العمري، منهج النقد عند المحدثين، ط1، دار اشبيليا، الرياض، 1997، ص6.

[36]احسان محمد الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، ط1، دار وائل للنشر، عمان، 2005، ص75.

[37] كبيسي طراد، مدخل في النقد الأدبي، دار اليازوري للنشر، عمان، د.ت، ص21.

[38] المرجع نفسه، ص21.

[39] بلال بوسنة، التاريخ المذهبي المغاربي في الكتابات الجزائرية المعاصرة_ القضايا والإشكالات_، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، 2022_2023، ص38.

[40] سالم موفق النوري، علم التاريخ، ط1، دار الفكر، عمان، 2014، ص82.

[41] علي غربي، أبجديات المنهجية في كتابة الرسائل الجامعية، مرجع سابق، ص27.

[42]طه عبد الواحد ذنون، أصول البحث التاريخي، ط1، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2004، ص123.

[43]ثائر أحمد غباري، خالد محمد أبو شعيرة، مناهج البحث التربوي، ط1، مكتبة المجتمع العربي للنشر، عمان، 2010، ص157.

[44]على جواد الطاهر، منهج البحث الأدبي، ط2، منشورات مكتبة النهضة، بغداد،1972، ص77.

[45] طه عبد الواحد ذنون، أصول البحث التاريخي، مرجع سابق، ص124.

[46] ثائر أحمد غباري، مناهج البحث التربوي، مرجع سابق، ص158.

[47] عبد الناصر جندلي، تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2005، ص163.

[48] عزيز داوود، مناهج البحث العلمي، ط1، دار المشرق الثقافي، عمان، الأردن، 2006، ص76.

[49] عبد الناصر جندلي، تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والاجتماعية، مرجع سابق، ص164.

[50] سورة البقرة، الآية: 282.

[51] سورة الكهف، الآية: 65.

[52]عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، دار المعارف، ط1، 1980، ص111.

[53] سورة الأنعام، الآية: 122.

[54] حسين طباطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج7، ص337.

[55] المرجع نفسه، ص338.

مصادر ومراجع المقال:

_ بلقاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية للقرآن الكريم.

_ زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، مؤسسة الهنداوي، ط1، 2018.

_ مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديث للطباعة والتوزيع، ط1، 2007.

_إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، دط، القاهرة، 1982.

_ راجح عبد الحميد الكروي، نظريو المعرفة بين القران والفلسفة، مكتبة المؤيد، عمان، ط1، 1992.

_ أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء، القاهرة، ط1.

_ محمد غلاب، المعرفة عند مفكري الإسلام، دط، د.د، القاهرة، 1966.

_ أحمد عبد المهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء، القاهرة، ط1، 2000.

_أبي العباس أحمد زروف الفاسي، مقدمة التصوف وحقيقته، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ط1، دس.

_ الطاهر بونابي، الظاهرة الصوفية العرفانية بالمغرب الأوسط، النشر الجامعي الجديد، تلمسان_ الجزائر، ط1، 2020.

_ عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، دار المعارف، ط1، 1980.

_ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة أحمد خليل، بيروت باريس: منشورات عويدات،2001.

_ قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990.

_أكرم ضياء العمري، منهج النقد عند المحدثين، ط1، دار اشبيليا، الرياض، 1997.

_احسان محمد الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، ط1، دار وائل للنشر، عمان، 2005.

_ كبيسي طراد، مدخل في النقد الأدبي، دار اليازوري للنشر، عمان، د.ت.

_ بلال بوسنة، التاريخ المذهبي المغاربي في الكتابات الجزائرية المعاصرة_ القضايا والإشكالات_، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، 2022_2023.

_سالم موفق النوري، علم التاريخ، ط1، دار الفكر، عمان، 2014.

_ طه عبد الواحد ذنون، أصول البحث التاريخي، ط1، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2004.

_ ثائر أحمد غباري، خالد محمد أبو شعيرة، مناهج البحث التربوي، ط1، مكتبة المجتمع العربي للنشر، عمان، 2010.

_على جواد الطاهر، منهج البحث الأدبي، ط2، منشورات مكتبة النهضة، بغداد،1972.

_عبد الناصر جندلي، تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2005.

_ عزيز داوود، مناهج البحث العلمي، ط1، دار المشرق الثقافي، عمان، الأردن، 2006.

_عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، دار المعارف، ط1، 1980.